جذور
العدد رقم 38
01 أكتوبر 2014

المفاهيم الحجاجية والتداولية في تعريف الصناعة الخطابية في البيان والتبيين للجاحظ

قالط حجي العنزي(*)

مقدمـــة:

كتاب «البيان والتبيين» أهم مؤلفات الجاحظ (ت: 255هـ) الأدبية، وأكثرها تداولاً بين النقاد وعلماء الشعر، وقد عدوه من أمهات الأدب وعيونه ، ولكنهم لم يغفلوا عن المنزع الفني الطاغي على الكتاب، وحرص صاحبه على استقصاء سبل القول، وتصاريف اللغة، لاكتشاف سر صناعة الكلام؛ مما جعله معرضاً للنصوص الأدبية المبتكرة ، وممارسة واعية لأبعادها الفنية، أفرزت جملة من المقاييس البلاغية والأسلوبية خلعت على الكتاب صبغة مزدوجة: الأدب ونقده[1].

والجاحظ في «البيان والتبيين» ينطلق من بُعد مذهبي يعتبر اللغة والبلاغة هما سلاح المناظرين والمجادلين الذين يتوخون نصرة مذهبهم والإقناع به. لقد كان الجاحظ على وعي بالدور الجسيم للكلام في مقارعة الرأي بالرأي ومواجهة الخطاب بالخطاب ؛ لذلك أثنى على أصحاب هذه الملكة من المحاجين، لاسيما أهل مذهبه من المعتزلة[2]. إن البعد المذهبي للجاحظ وولهه بأئمة الكلام، دفعاه إلى ربط البلاغة بأهداف إقناعية ، محدداً للقول الخطابي أدواراً في «الخصومة»[3]

(*) باحث في اللسانيات التداولية ونظريات الحجاج - السعودية.

و«منازعة الرجال ومناقلة الأكفاء»[4] و«مناضلة الخصوم»[5] وفي «الاحتجاج على أرباب النحل ومقارعة الأبطال»[6] وفي «العلو على الخصم»[7]. والخطيب مطلوب منه «الإبانة عن حجته»[8]، والبصر بها والمعرفة بمواضع الفرصة[9]، وأن يكون على بينة إذا كان «داعية مقالة ورئيس نحلة»[10]، وأن يعرف أن «سياسة البلاغة أشد من البلاغة»[11]، وأن يعرف كيف يضطر الخصوم بالحجة[12]، ويطبقهم بها[13]. والغاية من ذلك أن تكون «الأعناق إليه أميل، والنفوس إليه أسرع، والعقول عنه أفهم»[14].

لقد كان الجاحظ رجل محاجة ومناظرة ومتكلماً عارفاً بتصاريف الكلام ووجوه الاحتجاج، معتزلياً ملماً باللغة والنحو والأخبار والأديان والثقافات، كما عاش فترة خصبة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، نضجت فيها العلوم ونشطت الترجمة، وتمازجت الأجناس، وظهرت الزندقة والإلحاد والشعوبية، فكان من الطبيعي أن يعزز كتابه بالحجة الواضحة والبرهان الساطع؛ ليقارع الخصوم، ويستميل الأعناق، ويجذب النفوس، فحضرت الخطابة في كتابه «البيان والتبيين» بشكل لافت، إذ كان أول من أفاض الحديث عن الخطبة، وسياقها، وتوسع في دور كل طرف من أطراف العملية التخاطبية: المتكلم والسامع والنص في جعل النص بليغاً مؤثراً مقنعاً[15].

سيقوم هذا البحث بدراسة المفاهيم التداولية في تعريف الجاحظ للصناعة الخطابية في «البيان والتبيين»، وقد جاءت هذه المفاهيم على النحو الآتي :

- مفهوم البيان.
- مفهوم البلاغة.
- مفهوم المقام التواصلي.

أولاً: مفهوم البيان:

البيان في اللغة بمعنى: بان، أي: ظهر، والبيان ليس فعل قول، بل هو فعل عمل. وهو لا يتصل باللغة الطبيعية فحسب، بل يتصل بجميع أنواع الأنظمة العالمية التي تدل على الظهور والإبانة. فالبيان مفهوم تواصلي سيميائي، وهو أعلى مقولات التواصل ومراتبه.

ويرد «البيان» عند الجاحظ بمعنى الإيضاح وإظهار المعاني الكامنة في صدور العباد المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم[16]. والمعاني وفق هذا التصور موجودة بالقوة لا بالفعل[17]، وهو ما عبر عنه الجاحظ بقوله: «موجودة في معنى معدومة»[18]، وبقاؤها في هذا المستوى يجعل الآخر لا يعرف «ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، ولا على ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره»[19].

و«بيان» الجاحظ معني أساساً بـ «التبليغ» بما هو كشف للمعنى بغرض الإفهام والإقناع، يقول: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل»[20].

وهو عنده «فهم وإفهام» يقول: «مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[21].

إن «البيان» عند الجاحظ «اسم جامع» تندرج تحته جميع أصناف الدلالة أو «وجوه البيان » التي يحصرها في خمسة لا تزيد ولا تنقص، يقول: «وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة

أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نصبة. والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصِّر عن تلك الدلالات»[22].

والبيان بهذا المعنى منظور إليه من زاوية وظيفته العملية والإنجازية؛ «حيث المتكلم عنده ناهض بوظيفة (بيانية) و(تبيينية) بطريق كشف قناع المعنى وتوضيحه للسامع، ومن أجل أن يتحقق (البيان) (= الإفهام) ينيط الجاحظ بالسامع وظيفة (التبيين) (= الفهم) التي تقتضيه التأمل في المعنى من أجل تفهمه، وهو جهد يجعل السامع شريكاً للمتكلم في الفضل، إذ من دونه لا تتحقق (المقاصد) التي يهفو إليها المتكلم، ولذلك أولى الجاحظ عناية خاصة للمستمع المخاطب الذي أصبح محدداً أساساً في العملية البيانية» [23].

إن مدار العملية البيانية عند الجاحظ قائم «على الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل»[24].

وقد اهتم الجاحظ بشروط «الإرسال الجيد» لضمان حصول الاستجابة المرجوة، حيث فصل القول في العناصر الخارجية التي تشترط في العملية البيانية[25] مثل: سلامة النطق، وطلاقة اللسان، وعدم تنافر الألفاظ[26]؛ لاعتقاده أن «البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج، وجهارة المنطق، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن، وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تُستمال به القلوب، وتُثنى به الأعناق، وتزين به المعاني»[27].

وقد بلغ من أهمية «الإرسال الجيد» في الإبانة وتحقيق التصديق والإقناع أن يستعيذ في مفتتح كتابه من «العي» و«الحصر»[28]، فالعي

يؤدي إلى اختلال الحجة، والحصر يفوت على صاحبه إدراك حاجته يقول الجاحظ: «وليس - حفظك الله - مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة ، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة، وعن الحصر من فوت درك الحاجة»[29]؛ إذ «البيان بصر، والعي عمى»[30].

وقد بلغ من إعلاء الجاحظ للبيان أنه لم يحصره في الخطابين الشعري والخطابي، بل جعله يشمل أنظمة رمزية وسيميائية أخرى عددها في كتابه[31]، فشملت عنده اللفظ (الكلام المنطوق)، والإشارة (باليد والرأس والعين والحاجب والمنكب والثوب والسيف)، والخط (الكتابة)، والنصبة (الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد)، والعقد (الحساب باليد عوض اللفظ والخط)[32].

ويرى حمادي صمود، أن الجاحظ طرح في مؤلفاته أهم الأسس التي يقوم عليها التفكير البلاغي ومن أهم تلك الأسس «دفاعه عن الإبانة واعتباره وظيفة (الفهم والإفهام) أو (البيان والتبيين) الغاية التي تجري إلى تحقيقها كل مستويات اللغة ، حتى إنه لا يتصور خطاباً لغوياً لا تكون تلك الوظيفة قاعدته»[33].

ويرى محمد العمري، أن معنى كلمة «البيان» عند الجاحظ يتردد بين الدلالة على «العملية الإدراكية» وبين «الأداة» التي تحققها[34]:

- البيان هو «العملية»: «الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان»[35].
- والبيان هو «الأداة» نفسها: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان»[36].
- ومدار البيان على «الفهم والإفهام»[37].

وبعد هذا التعريف الذي وضع البيان في أفق معرفي/ إدراكي يبدأ الجاحظ في مقايضة البيان بالبلاغة، ثم مقايضة البلاغة بالخطابة، أو بيان علاقة هذه بتلك، ثم انتقل إلى المقام الخطابي، وامتد في الحديث عن الخطابة والخطباء إلى نهاية الكتاب[38].

يرى الجاحظ أن مهمة المتكلم أو المبلّغ تنتهي بمجرد التعبير عن مراده، «أما تحليل الخطاب وكشف أسراره وحقيقته أي عملية البيان والفهم فتقع على عاتق السامع بعد أن أدلى المتكلم بدلوه، فالبيان هو التعبير عما يختلج في الصدور ويعتمر فيها»[39].

ومفهوم البيان عند الجاحظ مرتبط بأسس إنتاج الخطاب؛ لأن مفهوم البيان يستوعب كل الطاقات التعبيرية ،كونها تؤدي وظيفتيه الإقناعية والتداولية[40]، وتتمثل الوظيفة الإقناعية للبيان في «إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي»[41]، «ولتحقيق هذا الهدف استراتيجية تداولية تعرف بـ «استراتيجية الإقناع»، إذ تكتسب اسمها من هدف الخطاب[42]. فالبيان عند الجاحظ لا يعني الفهم والتفهم فحسب ، وإنما يشترط في هذا البيان أن يكون ذا تأثير في متلقيه ،لهذا نرى الجاحظ لا يكف عن إعلان انتصاره للبيان الحجاجي ، الذي يهدف إلى الكشف والإيضاح عن المعنى المقصود بتوظيف الحجّة التي تتمكّن من النفوس والعقول معاً[43]. يقول الجاحظ في فاتحة «البيان والتبيين»: «وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد»[44]. إذ هو عنده ذو وظيفة إقناعية، وهذه الوظيفة هي نفسها الوظيفة التي حددها أرسطو للخطابة، فالخطابة عند أرسطو «قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة»[45]، وهي عند ابن رشد «تتكلف الإقناع في جميع الأشياء: في أي مقولة كانت، وفي أي جنس كان»[46].

اهتم الجاحظ بالجانب التأثيري والإقناعي في «البيان»، لهذا نراه يقول في تعريف «البلاغة» التي هي عنده صنو «البيان» و«الخطابة»: «وقال بعضهم - وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه - لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[47]. وعلق الدكتور مراد ابن عياد، على هذا التعريف بقوله: «ولعل ما يفسر ميل الجاحظ إلى هذا التعريف واجتباءه له على وجه التخصيص، هو قيامه على معادلة دقيقة طرفاها اللفظ والمعنى من جهة وما بينهما من تناسب وتراجع، ورهانها بين المبلغ والمبلغ إليه بحيث لا يستأثر اللفظ بسمع السامع، فلا يبقى منه للمعنى شيء في قلبه ولا يستأثر المعنى بقلبه فلا يبقى منه للفظ في سمعه شيء»[48].

ويركز الجاحظ في «البيان والتبيين» على الجانب الإقناعي للخطاب البياني، من ذلك قوله: «إنك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة، على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب»[49]، و«فصل الخطاب» يعني الإتيان بالحجج والأدلة المقنعة التي تؤثر في المخاطَب.

ويقول في موضع آخر: «إذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً عن الاستكراه، ومنزها عن الاختلال، مصوناً عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة»[50].

ويتضح الجانب التأثيري والإقناعي في «البيان» من خلال تركيز الجاحظ على لفظتي «قلبك» و«القلوب»، ومما لا شك فيه أن دلالة

«القلب» ترتبط بذوق المخاطب وتهتز له عاطفته بقدر ما يكون الكلام بليغاً ومؤثراً[51].

وقد فطن الجاحظ «إلى سلطان الكلام وعارضة الاحتجاج، وما لها من مفعول قوي في الاستمالة وجلب انخراط المستمعين، لذلك ربط البلاغة بالإقناع... فالبلاغة تغدو وسيلة للتأثير على المستمع والظهور عليه وإقناعه بالرأي»[52]، ولهذا سميت البلاغة عند الجاحظ ببلاغة الإقناع[53].

والجاحظ حينما يورد مصطلح «البيان» «فهو يشرح الكيفية التي يتم بها التواصل في المجتمعات مركزاً في ذلك على مستوى اللفظ الذي يعتبر أهم أنواع التبليغ، وأكثرها قدرة على إيصال الرسالة، فهو يرى أن الكلام يشترك مع الإشارة أو الحركة الجسيمة للمتصل، وذلك في بيان المعنى وتوضيحه»[54].

ويرجح تمام حسان، أن الجاحظ لم يقصد أن يجعل لفظ «البيان» مصطلحاً ، ولا أن يدخله في فروع العلم ، وإنما كان في نظره قسيماً للفظ «التبيين» إذ جعل «البيان» معنى عاماً، وجعل «التبيين» هو نتيجة الجهد الفني للإنسان، وكأن التبيين أولى بإيصال المعنى إلى السامع، أو جعله في متناوله، أما البيان فيضع في حسبانه المتكلم دون السامع؛ لأن المتكلم يبين والسامع يتبين[55]. والجاحظ في «البيان والتبيين» لا يقف عند حدود القدرة على استعمال اللغة، وإنما يقصد إحسان هذا الإظهار والبراعة فيه، من خلال تحويل القدرة على استعمال الكلام إلى طاقة جمالية تأثيرية تأسر الألباب وتأخذ بمجامع القلوب»[56].

والخطاب الإقناعي عند الجاحظ، مؤسس على مبدأ الفهم والإفهام، فقد وصل الجاحظ «إلى بلاغة الخطاب الإقناعي من خلال البحث في المعرفة بصفة عامة، كيف نُفهم وكيف نفَهم؟ بلاغة قوامها

الاعتدال في استعمال الصور البلاغية حسب الأحوال، والمقامات، مع توظيف كل الإمكانات المسعفة واعتماد ذخيرة معرفية شديدة التنوع من النصوص الأدبية والدينية والأخبار والأمثال والحكم»[57]. فالإفهام شرط هام من أجل إنتاج خطاب إقناعي، كما يقول ابن المقفع، فيما نقله عنه الجاحظ: «لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت»[58].

وتكمن الوظيفة التداولية «للبيان» في كون الخطاب عند الجاحظ يقوم على غاية نفعية، وهذا ما صرح به الجاحظ من خلال صحيفة بشر بن المعتمر، حين أقرّ بأن «مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة»[59].

فنظرة الجاحظ إلى اللغة تتأسس على المنفعة[60]، وذلك حسب رأي الدكتور حمادي صمود، يعود إلى سببين رئيسيين: أولهما تاريخي عام وثانيهما ظرفي خاص.

يرجع الأول إلى مكانة النص ووظيفته في بنية المجتمع الإسلامي الثقافية التي كانت تنحو إلى توظيفه لأغراض نفعية، كما هو الحال في النص القرآني «إذ هو مجموعة من التعاليم الروحية والعملية كلف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بحمل الناس عليها والدعوة إلى الأخذ بها، وكان لا بد أن يتم ذلك عن طريق الإبانة عن المقاصد، وإفهام الناس أسس الدعوة»[61].

كذلك الحال عند الشعراء الذين كان همهم «أن يبلغوا الغاية التي ترسموها، وهم مدركون أن ذلك لا يتأتى لهم إلا بحذق الصناعة والتفوق فيها، وهو شرط الظهور على الخصم وإفحامه وتليين عريكته وكسبه»[62].

أما الأسباب الظرفية فهي - حسب رأي الدكتور حمادي صمود - ربما تعود إلى الحقبة التاريخية التي عاش فيها الجاحظ وانتماءاته المذهبية وأثرها في تصوراته اللغوية»[63].

يرى صمود أن جهد الجاحظ تركز على شفافية الخطاب، «وهي قدرة العلامة والنص على الإشارة إلى ما سواها... ومن ثم انطبعت محاولته بطابع نفعي واضح يمكن أن يُعدّ بدون مبالغة أكمل محاولة في التراث اللغوي العربي لتأسيس ما يسمى «نفعية الخطاب»[64].

تعتبر صحيفة بشر من أقدم النصوص العربية التي اهتمت بالمبدأ النفعي للخطاب من خلال الاهتمام بمقتضى الحال، وما يفيد المخاطب؛ لأن شرف المعنى ووجه قبوله قائم على صوابه وصحته مع ما يقدمه من فائدة للمخاطب، ف «مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[65].

ولكي نضمن للخطاب أن يكون ناجحا ذا منفعة وجب أن تتوفر فيه شروط، من أهمها: القصدية والقيمة والتلقي ثم التفاعل[66]. والخطاب عند الجاحظ يجب أن يكون ذا منفعة، ولا تتحقق هذه المنفعة إلا بتوصيل المعنى للمتلقي، وهو شرط القصدية التي تعتبر من أهم الآليات التداولية التي تتحكم في إنتاج الخطاب وتوجيه معانيه إلى الأهداف المقصودة؛ لإفهام المخاطبين، وإقناعهم بصدق القضايا المطروحة[67]. يقول الجاحظ: «وهم يمدحون الحذق والرفق، والتخلص إلى حبات القلوب، وإلى إصابة عيون المعاني، ويقولون: أصاب الهدف، إذا أصاب الحق في الجملة، ويقولون: قرطس فلان، وأصاب القرطاس، إذا كان أجود من الأول، فإن قالوا: رمى فأصاب الغرّة، وأصاب عين القرطاس، فهو الذي ليس يفوقه أحد. ومن ذلك قولهم: فلان يفُلُّ الحزَّ، ويصيب المفصل، ويضع الهناء مواضع النُّقب»[68].

وقد تأسست نظرية القول عند العرب القدامى على «أمر أساسي مداره الإفهام، فشرط الخطاب عندهم أن يكون مفهماً مبيناً، حتى يصيب من الذهن مرتبة ومن العقل منزلة، كما اشترطوا إلى جانب الإفهام الإمتاع ، فوصلوا بين الوظيفتين بقانون أسموه المشاكلة، يمنع

الخطاب من التيه والضياع، حتى يحدث التعادل بين القيمة الجمالية والقيمة النفعية»[69].

و«البيان» عند الجاحظ أداة للتواصل والتفاهم بين أفراد المجتمع، ومن هذا القول «يعتبر الجاحظ أن البيان يحصل باستخدام اللغة بين المتكلمين والسامعين، فمن الجانب الأول يكون الإفهام لما تحويه المرسلات الكلامية، ومن الجانب الثاني يكون فهمها على حساب ما يريده الأول»[70].

ثانياً: مفهوم البلاغة:

بلغ بمعنى وصل، ومادة «بلغ» تقابل مادة «قصد»، أي أراد أن يصل، فمادة «بلغ» تُحكم لفائدة التواصل من خلال الطرف الثاني الذي يتلقى الخطاب .فالبلاغة أحد المفاهيم المتفرعة عن البيان.

والجاحظ «لم يكد ينتهي من تعريف البيان باعتباره فهماً وإفهاماً بالوسائل اللغوية وغير اللغوية حتى قايض كلمة (بيان) بكلمة (بلاغة)»[71].

والجاحظ عندما انتقل إلى مقايضة «البيان» بـ «البلاغة» لم يعتمد تعريف «البيان» السابق تعريفاً «للبلاغة»، بل صار يورد اقتراحات مختلفة منسوبة إلى الأمم مثل الفرس والهنود وإلى أعلام من الثقافة العربية، وفي هذا السياق يقايض الجاحظ مرة أخرى بين «البلاغة» و«الخطابة»، وكأنها مرادفة لها، فكان بذلك يؤسس للحجاج أو لبلاغة الخطاب الإقناعي»[72].

والبلاغة عند الجاحظ العلم الكلي الذي يتسع للخطاب التداولي الحجاجي وامتداداته الخطابية والشعرية[73]، ومفهوم البلاغة عند الجاحظ لا ينحصر في فن العبارة أو في الأسلوب أو في الغرض

الحجاجي، «إنها بلاغة نوعية تستمد أصولها من ارتباطها بجنس النص وسياقه»[74].

والمتأمل في مسرد تعريفات «البلاغة» التي أوردها الجاحظ في «البيان والتبيين» يقطع في غير شك أن «البلاغة» هي «الخطابة»، وذلك أن كل حد من هذه الحدود التي عرض لها الجاحظ تتناول قضية من قضايا «الصناعة الخطابية»، فالفصل والواصل، وتصحيح الأقسام واختيار الكلام، والبصر بالحجة والتماس حسن الموقع، ومعرفة ساعات القول»[75]، إلى غير ذلك من القضايا، فـ «أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة»[76]. وآلة البلاغة هي الاستراتيجيات الخطابية بأبعادها الثلاثة: الخطيب، والخطبة، والمخاطب[77].

ومن النصوص التي قايض فيها الجاحظ كلمة «بلاغة» بكلمة «خطابة» قوله: «قال سهل بن هارون: لو **أن رجلين خطبا أو تحدثا**، أو احتجا أو وصفا، وكان أحدهما جميلاً جليلاً بهياً... وكان الآخر قليلاً قميئاً... ثم كان كلامهما على مقدار واحد من **البلاغة**، وفي وزن واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع، وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم... وكان يقول: إذا كان الخليفة **بليغاً** والسيد **خطيباً**، فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين...»[78]، وقوله: «وإن كنتَ ذا بيان وأحسستَ من نفسك بالنفوذ في **الخطابة والبلاغة**، وبقوة المُنّة يوم الحفل، فلا تقصر في التماس أعلاها سورة، وأرفعها في البيان منزلة»[79].

وقوله: «وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه **بالخطابة**، ولا بهذا الجنس من **البلاغة**»[80].

والبلاغة عند الجاحظ تتضمن فكرة البلوغ والوصول من ناحيتي اللفظ والمعنى جميعاً[81]؛ لأنه «لا يكون الكلام **بليغاً** يستحق اسم

البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[82]، يقول الجابري: «وهذا يتطلب وجود المعنى وجزالة اللفظ»[83]؛ لأن البلاغة تحتاج إلى سياسة في القول وترتيب في أجزاء الكلام بطريقة معينة مقصودة؛لاستدراج المخاطب والتأثير فيه وحمله على الاقتناع، وهي الغاية التي يسعى إلى تحقيقها كل منتج خطاب[84].

فسياسة القول ليست في معنى الخديعة والمكيدة وإلحاق الأذى، وإنما هي في معنى المهارة وإتقان أصول الصناعة، وعلى هذا المعنى قامت البلاغة في أصل نشأتها عن الإغريق، فهي فن التأثير والإقناع والتغلب على الخصوم، ومدلولها يتجاوز مستوى العبارة إلى مستوى الخطاب[85]، بما هو تمييز وسياسة وترتيب ورياضة وتمام آلة وإحكام صنعة[86].

والخطابة عند الجاحظ أهم نوع تتجلى فيه «البلاغة» بكل مقوماتها[87]، فالخطابة بناء متكامل رأسها «الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ»[88].

و«البلاغة» عند الجاحظ اسم يشمل فنون القول المختلفة عند العرب وما أبدعوه من قصيد ورجز ومنثور وسجع ومزدوج، يقول الجاحظ: «ونحن - أبقاك الله - إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت، الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان، أن يقول مثل ذلك إلا في اليسير والنبذ القليل»[89].

وفي «البيان والتبيين» ينقل الجاحظ قول العتابي بأن «كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ»[90]،

ولما كان هذا التعريف فيه شيء من الغموض؛ لأنه يهمل الإشارة إلى ما تقتضيه بلاغة الكلام من فصاحة وصواب وإبانة وإعراب، نرى الجاحظ، بعد أن انتهى من نقل أقوال البلغاء والخطباء[91]، يرجع إلى قول العتابي ؛ ليقرر وجه الصواب فيه ، ويبين ما قد يتورط فيه المتكلم من تناقض لو حصر «البلاغة» في «إفهام الحاجة»، فيقول: «قال أبوعثمان: والعتابي حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ، لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه، بالكلام الملحون، والمعدول عن جهته، والمصروف عن حقه، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان، بعد أن قد فهمنا معنى كلام النبطي الذي قيل له: لم اشتريت هذه الأتان؟ قال: أركبها وتلد لي. وقد علمنا أن معناه كان صحيحاً»[92]. فالبلاغة إذن لا تقوم على الإفهام فحسب، ومن زعم خلاف ذلك، «جعل الفصاحة واللكنة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمعرب، كله سواءً، وكله بياناً»[93]. فالعتابي عندما تكلم عن الإفهام ، إنما عني «إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء»[94]. ونستنتج مما سبق أن «البلاغة» عند الجاحظ تقوم على الفصاحة علاوة على الإفهام[95].

و«البلاغة» عند الجاحظ هي الانتهاء إلى الغاية في التبيين والإفهام، والبعد عن التكلف والإسهاب والتزيد، يقول: «وهم وإن كانوا يحبون البيان والطلاقة، والتحبير والبلاغة، والتخلص والرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر، والتكلف، والإسهاب والإكثار؛ لما في ذلك من التزيد والمباهاة، واتباع الهوى، والمنافسة في الغلو. وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة ؛ لأن ذلك يدعو إلى السلاطة، والسلاطة تدعو إلى البذاء، وكل مراء في الأرض فإنما هو من نتاج الفضول»[96].

ويعرض الجاحظ لعدة تعاريف للبلاغة» يرجع فيها إلى ما بين اللفظ والمعنى من العلاقة، فالمعنى الشريف لابد له من اللفظ البليغ، ولا يطلب البليغ هذا اللفظ من المعاجم اللغوية، وإنما يطلبه من يطلبه من صحة الطبع، والبعد عن التكلف والاستكراه.يقول الجاحظ: «فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ **بليغاً**، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة عن هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة، أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة»[97]. والأمر في البلاغة يلخصه قولهم بشأن الكلمة: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان»[98].

والجاحظ حينما انتقل إلى الحديث عن البلاغة، لم يفصل بينها وبين البيان، بشكل يشعر القارئ أنه بإزاء مفهومين مختلفين، ففي كثير من الأحيان يقايض البيان بالبلاغة. يقول: «وقال تمامة قلت لجعفر ابن يحيى: **ما البيان؟** قال: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلي عن مغزاك، وتخرجه عن الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة، والذي لا بد له منه، وأن يكون سليماً من التكلف، بعيداً عن الصنعة بريئاً من التعقد، غنياً عن التأويل، وهذا هو تأويل قول الأصمعي: **البليغ** من طبق المفصل وأغناك من المفسر»[99].

والإفادة ورفع اللبس شرط أساسي في كل عملية تواصلية ، فالمتكلم حين يقصد إفهام المخاطب رسالته اللغوية فإنه يرتبها على منوال لا يدع معه للبس مجالاً حتى يدرك مقاصده ذلك الإدراك الذي يتوخاه، يقول تمام حسان: «إن اللغة العربية – وكل لغة أخرى في الوجود – تنظر

إلى أمن اللبس باعتباره غاية لا يمكن التفريط فيها لأن اللغة الملبسة لا تصلح واسطة للإفهام والفهم وقد خلقت اللغات أساسا للإفهام وإن أعطاها النشاط الإنساني استعمالات أخرى فنية ونفسية»[100].

والإفادة ورفع اللبس من أهم مبادئ التعاون التي صاغها الفيلسوف الأمريكي «بول غرايس»، وهذا المبدأ يوجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخلا فيه»[10]. فـ «فهم الأقوال يحتاج فضلاً عن معرفة ما قيل (الدلالة الوضعية المستفادة من الجملة) إلى الكشف عن احتمالات تأويل مقاصد القائل في ارتباط بملابسات التلفظ ، ويحتاج تحديداً عن الاستلزامات المحادثية»[102].

وقد فهم الجاحظ دور هذا المبدأ في تبليغ أغراض المتكلم للمستمع فهماً صحيحاً، يقول: «وكان عبدالرحمن بن إسحاق القاضي يروي عن جده إبراهيم بن سلمة، قال: سمعت أبا مسلم يقول: سمعت الإمام إبراهيم بن محمد يقول: يكفي من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع»[103]. وقد علق الجاحظ على هذا النص بقوله: «أما أنا فأستحسن هذا القول جداً»[104]. فوظيفة البلاغة للمتكلم أن تساعده على إبلاغ حاجته، ووظيفتها للمخاطب حسن الإفهام، الذي يختص بالمستوى البليغ من الكلام.

والإقناع من أهم وظائف التواصل وغاياته، لذلك جاءت البلاغة العربية من أجل «التواصل والإقناع والإمتاع»[105] حيث جعلت الإقناع من بين الوظائف التي من أجلها وضعت البلاغة . وقد عرف القرطاجني (ت: 684هـ) الإقناع بأنه «إنهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التخلي عن فعله أو طلبه أو اعتقاده»[106]. والإقناع «قوام المعاني الخطابية»[107] وحتى يكون الخطيب مقنعاً لابد أن يرد كلامه

«على جهة الاحتجاج والاستدلال»[108]؛ لأن الخطابة أساساً تقوم على تقوية ظن المتلقي لا على إيقاع اليقين، إلا إذا عدل الخطيب عن الإقناع إلى التصديق[109].

وقد أورد الجاحظ عدداً من صفات الخطيب، حتى يكون مقنعاً بليغاً، يقول: «أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، سكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة»[110].

وفي تعريفات الجاحظ «للبلاغة» إشارة إلى جانب الحجة والإقناع، وهو ما يبرز البعد الحجاجي للبلاغة عند الجاحظ، فابن المقفع يجعل الاحتجاج وجها من وجوه البلاغة وحالة من حالاتها، حين سئل ما البلاغة ؟ فقال: «البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل»[111].

ثالثاً: مفهوم المقام:

مصطلح «مقام» مصطلح فضائي مرتبط بالفعل «يخطب». والخطبة هي إحداث كلام في الزمان ،فالناس يخطبون في المقامات، وهذه المقامات مرتبطة بالأعراف اللغوية والمناويل المعرفية.

لا وجود لخطاب بدون أن يكون مظروفاً في مقامه، ولا يمكن تعيين معنى لخطاب ما خارج المقام[112]. فلا خطابة بدون مقام معين، أو مستمع يعمل الخطاب على إقناعه ، فأنجع الكلام في الحجاج ماجاء على قدر المقام[113]. فكل تواصل لغوي هش بما أن المتقبل لا يشاطر المتكلم مقام تلفظه [114].

ويمثل المقام أساس الأبحاث التداولية في اهتمامها بمتضمنات القول وتخصيصها بوصفه وعاءً شاملاً لكل ما تضيق اللغة عن تفسيره وتأويله[115]. والمقام وما يشتمل عليه من مكونات منها الزمان والمكان، ومنها المتكلم والمخاطب وحالهما، وما يصل بينهما من علاقات وما يتصل بهما من أوضاع ومواقع ، عنصر أساسي من العناصر التي يقوم عليها الدرس البلاغي[116]، فالدلالة النحوية دالة مجردة، أما إنجاز الأقوال في المقامات المعينة ، فهو استعمال لمعاني النحو ودلالته المجردة فيما يناسب من المقامات الخاصة، فتكون الأبنية الدلالية المنجزة أبنية نحوية دلالية خاصة تنعكس فيها خصوصية المقام. وتسمى معاني النحو المعاني الأُول، بينما تسمى مقتضيات أحوال المقام المناسبة لغرض المتكلم، المعاني الثواني، وقد تختزل في مفهوم الغرض الذي يساق إليه القول[117].

والمقام هو مجموع شروط إنتاج القول، وهي الشروط الخارجة عن القول ذاته، والقول هو وليد قصد معين يستمد وجوده من شخصيته المتكلم ومستمعه أو مستمعيه ومن العوامل المؤثرة في إنجازه[118].

وللمقام حضور لافت في تفكير الجاحظ البلاغي، سواء في وضوح التصور أو في كثرة المصطلحات المشيرة إليه، البانية لحقله المعنوي، كالموضع والحال، وما دار في فلكهما كالأقدار والمطابقة والمشاكلة[119]، وقد اعتبر الجاحظ المقام سياسة تحتاج إلى تدبر وحسن تصرف، وعلى قدر حنكة المتكلم في تدبير مقام كلامه، وفي إيقاع النسبة بينه وبين ما يقول ، يكون نجاحه ، ووضعه نفسه بمنجاة عن حسد الحاسد الذي يتعقب السقط ومواقع الزلل حيث لا زلل ولا سقط[120]، يقول الجاحظ: «إذا أعطيت كل **مقام** حقه، وقمت بالذي

يجب من سياسة ذلك **المقام**، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ؛ فإنه لا يرضيهما شيء»[121].

وهذه السياسة لا تتأتى بتكلف مقامات الخطباء الأبيناء الذين يستطيعون مواجهة صعوبة المقام وأهواله إذا ابتلوا بمقام اهتدوا إلى مسالك الخلاص منه[122]، يقول الجاحظ «فإذا ابتليت **بمقام** لابد لك فيه من الإطالة، فقدم إحكام البلوغ في طلب السلامة من الخطل ، قبل التقدم في إحكام البلوغ في شرف التجويد، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئاً، فإن قليلاً كافياً خير من كثير غير شاف»[123]. ويقول: «سمعت أبا داود بن حريز، يقول وقد جرى شيء من ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه ، **وصعوبة ذلك المقام وأهواله**، فقال: تلخيص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بغض، والنظر في عيون الناس عي، ومس اللحية هلك، والخروج مما بُني عليه أول الكلام إسهاب»[124].

والمتكلم عند الجاحظ لا يكون بليغاً إلا إذا اكتملت لديه آلة البلاغة، ومن أهمها معرفة مقامات المخاطبين وما يصلح في كل واحد منها من الكلام، «فالبليغ هو من يتقن المرور والتنقل بين المقامات والمقالات، وهو من يعرف كيف يوازن بين عناصر المقال اللغوية والأدبية وبين عناصر المقام ومقتضياته، وكيف يشتغل بالعلاقات الملائمة التي من الضروري أن ينشئها بين المقال والمقام[125].

والمقام في البلاغة الجديدة يحتل مكانة مهمة في الحجاج والإقناع، وخاصة في الدراسات والأعمال التي تنشغل بالحجاج داخل الخطاب، وتعيد النظر في تصورات ومفاهيم البلاغة الجديدة[126]، ومن هذه الأعمال كتاب روث أموسي «الحجاج في الخطاب» الصادر سنة (2000م)، ففي قسمه الأول الذي يعالج التلفظ، نجد الفصل الأول

منه مكرساً لمفهوم «مسايرة/ ملاءمة السامع»، وقد مهدت أموسي هذا الفصل بجملة من القضايا النظرية، يمكن حصرها في النقاط الآتية:

- لحظة التقبل ودورها في عملية التبادل الحجاجي.
- علاقة الخطيب بالجمهور ودور الحجاج في إحداث الأثر وتوليد الفعل.
- مادية التبادل التلفظي التكلمي.
- صور المتكلم وهيآته.
- بلاغة الجمهور[127].

وقد ورد لفظ «المقام» في صحيفة بشر بن المعتمر، يقول بشر: «والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[128]. وفق هذا النص تكون مراعاة المقام شرطاً في كل عملية تواصلية تروم «المنفعة» و«الصواب».

والمقام عند الجاحظ يكتسي طابعاً تداولياً يجعله يلف كل الأطراف العملية التخاطبية، فالمتكلم محكوم باعتبار مخاطبه، وباعتبار التلاؤم بين الغرض وصورة قوله، واعتبار السياق الذي يرد فيه الخطاب[129]. فالمنهج التداولي ينزع نحو مقاربة شمولية تكاملية للخطاب بدءاً من أركانه الأساسية، وانتهاءً بملابساته المساهمة في إنتاجه[130]. واللسانيات التداولية تختص بدراسة الاستعمالات اللغوية في تعلقها بمقامات الكلام[131]، فبينة العبارات اللغوية تعكس إلى حد بعيد المضامين التي تحملها، والأغراض التواصلية التي تحققها في طبقات مقامية معينة[132].

وينظر الجاحظ إلى المخاطب نظرة مركبة: فهو الكائن الإنساني الواقعي الذي يتوجه إليه المتكلم بالخطاب في زمان ومكان محددين،

والمخاطب هو هذا الكائن نفسه وقد انتقل متخيل المتكلم ؛ ليكون من العناصر المؤسسة لخطابه . فالمخاطب الأول بعدي ، والمخاطب الثاني قبلي ، فالخطاب يقتضي من المتكلم تكوين فكرة مفترضة وصورة متخيلة عن مخاطبه قبل أن يواجهه بخطابه[133].

وأول ما ينبغي للمتكلم مراعاته قبل بناء خطابه هو نوعية المخاطب، فالجاحظ يتحدث عن نوعين من المخاطبين ، يسمي الأول العامة أو العوام ، والثاني الخاصة أو الخواص، يقول: «وجملة القول في الترداد، أنه ليس فيه حد ينتهي إليه، ولا يؤتي على وصفه، وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص»[134]. ويضيف «... أن يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ،مع موافقة الحال، **وما يجب لكل مقام من المقال**»[135]. فالجاحظ في النص السابق يفصل أكثر في مفهوم المقام ، فبالإضافة إلى مراعاة مقتضى الحال، فإنه يطلب من المتكلم اختيار الألفاظ المناسبة والمعاني الواضحة القريبة من ذهن السامع، فالكلام لا يشرف بكونه من كلام الخاصة ولا يتضع بكونه من كلام العامة، ومدار الشرف على بلوغ المعنى وإفهام السامع.

والمبدأ الذي يجب أن ينطلق منه المتكلم في توجيه خطابه، هو ما جاء في قول بعض العلماء الأوائل: «إنما الناس أحاديث ، فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثاً فافعل»[136].

وهذا المعنى العام للمخاطب هو ما يسمى اليوم: الجمهور العام، وهو جمهور «يواجهه المتكلم بشكل مادي ملموس في مكان وزمان

محددين، والجمهور العام يتألف هذا الجمهور من مكونات متنوعة ومتنافرة، ويقتضي من المتكلم خطاباً بخصائص تجعله مقبولاً من كل هذه المكونات[137].

والعامة عند الجاحظ لا تعني الناس جميعاً بل هي تعني طبقة وسطى تتألف تملك من الكفايات الاجتماعية والثقافية واللغوية ما يؤهلها لاستقبال الخطاب، يقول: «وإذا سمعتموني أذكر العوام ، فإني لست أعني الفلاحين والحشوة والصناع والباعة، ولست أعني أيضاً الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل البير والطيلسان، ومثل موقان وجيلان، ومثل الزنج وأشباه الزنج، وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع: العرب، وفارس، والهند، والروم، والباقون همج وأشباه همج. أما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا، ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا»[138]. والخاصة هي الطبقة العليا في المجتمع «على أن الخاصة تتفاضل في طبقات أيضاً»[139].

فالناس عند الجاحظ طبقات، ولابد أن يكون الخطاب كذلك طبقات، يقول الجاحظ: «وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات»[140].

ومراعاة طبقات الناس تكون في معرفة أقدار المعاني ، فلكل من الخاصة والعامة معان يخاطبون بها، يقول الجاحظ نقلاً عن بشر بن المعتمر: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً، ولكل حالة من ذلك **مقاماً**، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار **المقامات**، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[141].

ويجب على المتكلم أن يراعي التصنيف الطبقي «فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً»[142] فشرف المعنى لا يعود إلى انتمائه إلى طبقة معينة، بل يعود إلى قدرته على تحقيق الغاية التي من أجلها أنشئ، فالمعنى «ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة. وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة ،مع موافقة الحال، **وما يجب لكل مقام من المقال**»[143].والمتكلم البليغ هو الذي يكون «في قواه فضل التصرف في كل طبقة»[144]، فنجاح الخطاب مرتهن بقدرته على استمالة المخاطبين والتأثير فيهم، فالبليغ التام هو الذي يكون قادراً على إفهام العامة معاني الخاصة، يقول الجاحظ: «فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام»[145].

إن «نجاعة الخطاب وفعله في المخاطب رهينان باستحضار المتكلم لطبيعة المستمعين ومواقفهم وظروفهم، فالقول المقنع لا يكون غفلاً بل حاملاً لانتظارات المتلقين»[146].

ونبه الجاحظ أيضاً إلى أهمية المكان، واعتبره من العناصر المقامية الفاعلة في الخطاب[147]، فقال: «وليس في الأرض لفظ يسقط البتة، ولا معنى يبور حتى لا يصلح لمكان من الأماكن»[148]. فـ«المكان يستمد دلالته المقامية من الحاضرين فيه أساساً، والعلاقات التي يقيمونها بينهم، ومن المنزلة التي تكون فيه الأطراف المتناظرة، والموضع الذي يفتكه كل منهما ليعلي مقامه، ويبخس مقام خصمه، أكثر مما يستمدها من المكان في حد ذاته»[149]. والمنزلة عند الجاحظ،

حال الشيء في النفس وموقعه من القلب، كالتعظيم والتفضيل، والإكبار والتبجيل[150].

وقد ربط الجاحظ بين تخير اللفظ وأحوال الناس، فكل طبقة من الناس لها ألفاظها الخاصة يقول: «وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً ، وساقطاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً ؛ إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً، فإن الوحشي من الكلام يفهم الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي. وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات»[151].

ومن الأمور التي يجب أن يأخذها المتكلم بعين الاعتبار قبل بناء خطابه ، مراعاة الحال الذهني للمخاطب[152]، فالبلاغة تعني أولاً بلوغ عقل المتكلم وفكره، وهذا البلوغ لا يتحقق إلا إذا أدى الخطاب وظيفة الإفهام[153]، و«اتصل بالأذهان، والتحم بالعقول»[154]، و«كان قد أعفى المستمع من كد التكلف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم»[155].

فكل طبقة من الناس تخاطب بالخطاب الذي تفهمه «ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[156].

وكل سوء فهم أو عسر إفهام يعني فشل الخطاب في بلوغ عقل المستمع، لهذا يستحسن الجاحظ هذا التعريف للبلاغة «يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتي السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتي الناطق من سوء فهم السامع»[57].

والإفهام شرط أساسي في كل خطاب يسعى إلى الإقناع والتأثير، ويقوم الخطاب الإقناعي عند الجاحظ على «مبادئ أساسية، أولها أن الإقناع يعني التوجه إلى العقل، والعمل من أجل إفهام المخاطب، وثانيها أن العقل ليس شيئاً مطلقاً، بل هو محدد بمحددات لغوية وذهنية

تتفاوت من مخاطب إلى آخر، ومن طبقة إلى أخرى، وهذا التفاوت هو الذي ينبغي للمتكلم أن يأخذه بعين الاعتبار، فالخطاب البليغ ليس خطاباً واحداً موحداً، وليس هو بالضرورة ذلك الخطاب الذي يبلغ أعلى درجات الفكر والأدب والعلم، بل هو الخطاب الواضح المبين الذي يسهل على مخاطبه أن يفهمه ويستوعبه»[158].

ومراعاة الحال الثقافي للمخاطب تعني أن يوظف المتكلم داخل خطابه المرجعيات الثقافية التي تحظى بالقبول والمصداقية في الحقل الثقافي الذي ينتمي إليه المخاطب[159]. وتقتبس هذه المرجعيات الثقافية من القرآن والحديث والشعر والأمثال والحكم، ولهذه المرجعيات وظيفة حجاجية مهمة؛ لأنها «قادرة على تجاوز معارضة الخصم وانتزاع تسليمه»[160]. ويرى الجاحظ أن الشاهد عنصر من عناصر الحجاج البلاغي، كما أنه مرادف للحجة والدليل والبرهان، والشاهد له حمولة معنوية وعقلية إذ به يحصل التصديق والاستدلال والبرهنة[161]. والشواهد «حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها ومن مصادقة الناس عليها وتواترها، وتدخل الخطيب ينحصر في اختيارها، وتوجيهها إلى الغرض المرصودة للاستدلال عليها»[162]. والمرجعيات الثقافية تقوم بإرساء الحقائق والعلوم، يقول الجاحظ: «وكفاك مع علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل»[163]. ويعتبر الشاهد القرآني أقوى الشواهد في الثقافة العربية، وهو أعلى الحجج وأقواها ، فالمخاطب لا يقبل خلو الخطاب من الشاهد القرآني، وهذا ما قصده الجاحظ من رواية الواقعة التالية: «قال الهيثم بن عدي: قال عمران بن حطان: خطبتُ عند زياد خطبة ظننتُ أني لم أقصر فيها عن غاية، ولم أدع لطاعن علة، فمررتُ ببعض المجالس، فسمعتُ شيخاً يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن»[164]. ويقول الجاحظ: «وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي

الكلام يوم الجمع آي من القرآن؛ فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار،والرقة ،وسلس الموقع»[165].

ومن الأمور التي يجب على الخطيب مراعاتها الحال النفسي والانفعالي للمخاطب[166]، فالخطاب البليغ هو ما «حبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول ، وهشت إليه الأسماع ، وارتاحت له القلوب»[167]، وهو ما كانت «الأعناق إليه أميل ، والعقول عنه أفهم ، والنفوس إليه أسرع»[168].

وينبه الجاحظ إلى ضرورة مراعاة الحالة النفسية والانفعالية للمخاطب وتجنب ما يؤدي إلى الملل والاستثقال، يقول: «للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه»[169]. فالعرب «يحبون البيان والطلاقة، والتحبير والبلاغة، والتخلص والرشاقة»[170]، ولكنهم «يكرهون السلاطة والهذر، والتكلف والإسهاب والإكثار... وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة ؛ لأن ذلك يدعو إلى السلاطة ، والسلاطة تدعو إلى البذاء»[171].

وبعد حديث الجاحظ عن المقام المحدد، انتقل إلى المقام الخطابي، «وهو مقام تغلب عليه المشافهة، ولا يتعلق بجنس من أجناس القول، إذ جميعها مدعو إلى مراعاة الضوابط التي تقتضيها سياسة المقام ومواجهة أهواله إلى مقام فرعي ارتبط بجنس أدبي محدد هو الخطبة، وبمناسبات مخصوصة تتحقق في سياقها كمناسبات الأعياد، والنكاح، والتعزية، والوعظ والاستنفار»[172]. والملاءمة بين المقال والمقام تعد أهم مقوم لبلاغة الجنس الأدبي، فقد بنى الجاحظ نظريته في البلاغة باعتماد مقام الخطابة [173].

وقد حظي المقام الخطابي بعناية كبيرة في البلاغة القديمة والجديدة، وكذا في الدراسات التداولية الحديثة[174]. فمراعاة المطابقة بين المقال والمقام يوجب على المتكلم عدم الفصل بين مقصد القول وصورته، «إذ لكل غرض بناء مناسب، والبلاغة بلاغات والكلام صفات، ولكل وجه من وجوهه مقصد مخصوص، فللإيجاز مقصده، وللإطالة غرضها»[175]. فمطابقة المقال للمقام وسيلة من وسائل الإقناع ، لذلك يلح الجاحظ على الالتزام بمراعاة المقام ، وهذا يترجم حرصه على نجاعة الاستراتيجية الإقناعية والبلاغية في القول. وتعد محاولة الجاحظ أكمل محاولة في التراث اللغوي العربي لتأسيس ما يسمى بنفعية الخطاب[176].

وفكرة مطابقة المقال للمقام هي التي أوحت إلى الجاحظ الاهتمام بسياسة القول، وترتيب الحجج، وأحوال المخاطبين وأقدارهم، إلى غير ذلك من الأمور، والتي هي من صميم نظرية الحجاج[177]. فالمقام عند الجاحظ منظور فيه المعنى التأثيري الإقناعي الذي تتحقق به الصواب والمنفعة المنشودة في كل خطاب إبلاغي ؛ لأن «مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[178]. والكلام يكون طبقاً لما اقتضته حاله بحسب أنواع المقامات، مادامت مقامات الكلام مختلفة ومتفاوتة، فالمتكلم في مقام تعزية غير المتكلم في مقام تهنئة، والمتكلم في مقام هزل غير المتكلم في مقام جد، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر، فقد يتطلب المقام الإيجاز، فيكون الإيجاز بلاغة، وقد يتطلب المقام الإطالة، فيكون الاختصار عي وعجز. يقول الجاحظ: «ثم اعلم بعد ذلك أن جميع خطب العرب، من أهل المدر والوبر، والبدو والحضر، على ضربين: منها الطوال ومنها القصار، ولكل ذلك مكان يليق به، وموضع يحسن فيه»[179]. فذكر مصطلح (الموضع) بمفهومه «الدال على

الزمان والمكان ، ومناسبة الكلام ، ونوع المخاطبين والمتكلمين. ولكل هذه الأطراف شروط وأحوال ومقتضيات مؤثرة في الكلام بين الإطالة والإيجاز، مثلما هي مؤثرة أيضاً في الغرض منه، وفي الاختيارات التي يقوم بها المتكلم في معجم كلامه وتركيبه وبلاغته ، والنوع الأدبي الذي ينتمي إليه»[180].

يقول الجاحظ مثلاً عن مقام الإيجاز: «ومما مدحوا به الإيجاز والكلام الذي هو كالوحي والإشارة قول دؤاد بن حريز الإيادي:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

فمدح كما ترى الإطالة في موضعها، والحذف في موضعه»[181].

ومن المقامات التي تستحسن فيها الإطالة الخطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البين، يقول الجاحظ: «فأما الخطب بين السماطين، وفي إصلاح ذات البين، فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال»[182].

ومما يستحسن في خطبة النكاح، سلامة البيان من كل عيب ، يقول الجاحظ: «وقال خلاد بن يزيد الأرقط: خطب الجمحي خطبة نكاح أصاب فيها معاني الكلام ، وكان في كلامه صفير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة، فأجابه زيد بن علي بن الحسين بكلام في جودة كلامه، إلا أنه فضله بحسن المخرج، والسلامة من الصفير»[183]. فسلامة اللفظ في خطبة النكاح، واختيار ما يناسب المقام منها، أشد تبليغاً، ولها سنن وشروط تجعلها تختلف عن غيرها من الخطب[184]، ومنها هذه السنن، أن «يطيل الخاطب ويقصر المجيب»[185]، ومن سننها كذلك أن يكون فيها الخطيب جالساً، فـ «لم تكن الخطباء تخطب قعوداً إلا في خطبة النكاح»[186].

ومن البلاغة مراعاة ألفاظ الخطبة واحترام شروط القول فيها من حال وظروف ومواضع، فمن العي أن تكون ألفاظ المتكلم لا تمت للمقام الخطابي بصلة، يقول الجاحظ: «وقبيح بخطبة العيد أو يوم السماطين، أو على منبر جماعة، أو في سدة دار الخلافة، أو في يوم جمع وحفل، إما في إصلاح بين العشائر، واحتمال دماء القبائل، واستلال تلك الضغائن والسخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبر ضخم الشأن، رفيع المكان: ثم إن الله، عز وجل، بعد أن أنشأ الخلق وسواهم ومكن لهم، لاشاهم فتلاشوا»[187].

ومن البيان والبلاغة أن يراعي المتكلم وضع مخاطبه ومرتبته الاجتماعية، وهذا يدل على وعي الجاحظ المبكر بمحددات الجنس الخطابي بالقياس إلى المقام الذي تتحد فيه[188]، يقول الجاحظ: «وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل ، إلا أن تكون إلى الخلفاء»[189].

خلاصـــة:

لقد كان للجاحظ وأوائل البلاغيين المعتزلة «دور هام في إشاعة الوعي بالشرط المقامي في الكلام، مثلما كان لهم دور في إشاعة التلقي الفاعل بالتأويل، تلقي العلامات الكونية، والعلامات التبالغية اللغوية، وذلك راجع لانتصارهم لأمرين هما: العقل وتقديم المداخل المادية المدركة للظواهر كما في حال الاستدلال بالفعل على الفاعل»[190].

يتضح مما سبق أن البلاغة عند الجاحظ في «البيان والتبيين» انطلقت من «الخطاب البليغ»، واقترنت بالنظر في الخطابة ، وفي الوسائل التي يتحقق بها الإقناع . ومن هنا يتضح أن «البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما، مستخدمين وسائل محددة التأثير على بعضهما»[191].

الهوامش

(1) انظر: صمود، حمادي ، التفكير البلاغي عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس (مشروع قراءة)، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، 2010م، ص (140).

(2) انظر: عادل، عبداللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، بيروت - لبنان ، و منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة - الجزائر، ودار الأمان، الرباط – المغرب ، الطبعة الأولى، 1434هـ - 2013م، ص (61).

(3) انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الخامسة، 1405هـ - 1985م، 8/1.

(4) انظر: المصدر السابق 12/1.

(5) انظر: المصدر نفسه 91/1.

(6) انظر: المصدر نفسه 14/1.

(7) انظر: المصدر نفسه 176/1.

(8) المصدر نفسه 7/1.

(9) المصدر نفسه 88/1.

(10) الجاحظ ، البيان والتبيين 14/1.

(11) المصدر السابق 197/1.

(12) نفسه 91/1.

(13) نفسه 197/1.

(14) نفسه 7/1.

(15) انظر: صمود، حمادي، مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف، حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية - تونس 1، كلية الآداب منوبة، 1998م، ص (21).

(16) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين 75/1.

(17) انظر: عبدالمجيد، جميل، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2000م، ص (143)، والعشراوي، عبدالجليل، الحجاج في الخطابة النبوية، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، الطبعة الأولى، 2012م، ص (46).

(18) الجاحظ، البيان والتبيين 75/1.

(19) المصدر السابق، 75/1.

(20) نفسه 76/1.

(21) نفسه 76/1.

(22) نفسه 76/1.

(23) الغرافي، مصطفى، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، عالم الفكر، العدد (1) المجلد (40)، يوليو - سبتمبر، 2011م، ص(252-253).

(24) الجاحظ، البيان والتبيين 11/1.

(25) انظر: الغرافي، مصطفى، الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال «منهاج البلغاء وسراج الأدباء»، ص (253).

(26) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين 14/1.

(27) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(28) نفسه 3/1.

(29) نفسه 14/1.

(30) نفس المصدر 77/1.

(31) انظر: بناني، محمد الصغير، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، دار الحداثة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 1986م، ص(11-12)، والعمري، محمد، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الثانية، 2010م، ص (196).

(32) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين 77/1-81.

(33) صمود، حمادي، التفكير البلاغي عند العرب، ص (542).

(34) انظر: العمري، محمد، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة: دراسات وحوارات، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الأولى، 2013م، ص(129).

(35) الجاحظ، البيان والتبيين 75/1.

(36) الجاحظ، البيان والتبيين 76/1.

(37) المصدر السابق 76/1.

(38) انظر: العمري ، محمد البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص (201).

(39) الخفاجي، زينب عبدالكريم، الخطاب العربي وخصائصه عند الجاحظ، دراسة تحليلية، أطروحة دكتوراه ، إشراف الأستاذ الدكتور: عاصم عبد دواح، كلية التربية، جامعة بغداد، بغداد - العراق، 1429هـ، 2008م، ص (237).

(40) انظر: الشيخي، حليمة موسى محمد، النظرية التداولية في تراث الجاحظ، رسالة مقدمة للحصول على الدكتوراه في علم اللغة، إشراف: أ.د. إبراهيم الدسوقي عبدالعزيز، وأ. د. حسن محمود نصر، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، القاهرة - مصر، 2013م، ص (86).

(41) بليث، هنريش، البلاغة والأسلوبية، نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، ترجمة: محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، 1999م، ص (64).

(42) انظر :الشهري، عبدالهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب - مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 2004م، ص (445).

(43) انظر: ابن عيسى، عبدالحليم، البيان الحجاجي في إعجاز القرآن الكريم، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد (102)، السنة السادسة والعشرون، نيسان 2006م، ربيع الثاني 1427هـ، ص (37).

(44) الجاحظ، البيان والتبيين 11/1.

(45) أرسطوطاليس، الخطابة الترجمة العربية القديمة، تحقيق وتعليق: د. عبدالرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، بيروت - لبنان، 1979م، ص (9).

(46) ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق وشرح: محمد سليم سالم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، مصر، 1378هـ/1967م، ص(29).

(47) الجاحظ البيان والتبيين 115/1.

(48) ابن عياد، مراد، ماذا قدم الجاحظ إلى البلاغة العربية والبلاغيين العرب؟ ضمن: الجاحظ في الثقافة العربية الإسلامية، أعمال ندوة قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس، 12-14، 2007م، تنسيق: عامر الحلواني، المطبعة الرسمية للبلاد التونسية، تونس ، الطبعة الأولى، 2011م، ص (105).

(49) البيان والتبيين 114/1.

(50) الجاحظ، البيان والتبيين 83/1.

(51) انظر : نجار، منال محمد هشام، نظرية المقام عند العرب في ضوء البراغماتية، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى، 1432هـ، 2011م، ص (61).

(52) عادل، عبداللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص (64).

(53) انظر: أوكان، عمر، اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2001م، ص (116).

(54) عزوز ، أحمد ، البيان والاتصال عند الجاحظ ، ضمن : الجاحظ في الثقافة العربية الإسلامية ، أعمال ندوة قسم اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، تونس، 12-14 أفريل ، 2007م، تنسيق: عامر الحلواني، المطبعة الرسمية للبلاد التونسية، تونس ، الطبعة الأولى ، 2011م، ص (105).

(55) انظر: حسان، تمام، المصطلح البلاغي القديم في ضوء البلاغة الحديثة، مجلة فصول، المجلد السابع، العددان الثالث والرابع، أبريل - سبتمبر، 1987م، ص(30).

(56) انظر: المرجع السابق، ص (30)، وابن عياد، مراد، ماذا قدم الجاحظ إلى البلاغة العربية والبلاغيين العرب؟ ص (126).

(57) العمري، محمد، البلاغة العربية، أصولها وامتداداتها، ص (24).

(58) الجاحظ، البيان والتبيين، 116/1.

(59) البيان والتبيين 136/1.

(60) وقد سميت التداولية بالنفعية، ينظر: العياشي، منذر، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، دار المحبة، دمشق، سوريا، د.ط، 1429هـ، 2009م، ص (141).

(61) صمود، حمادي، التفكير البلاغي عند العرب، ص (180).

(62) المرجع السابق، ص (180).

(63) نفسه ص (188).

(64) صمود، حمادي، التفكير البلاغي عند العرب، ص (271).

(65) الجاحظ ، البيان والتبيين 136/1.

(66) انظر : عمران، قدور ، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط 1، 2012م، ص (9).

(67) انظر: الميساوي، خليفة ،القصدية في الخطاب السجالي ،ضمن الكتاب الجماعي: التداوليات وتحليل الخطاب (بحوث محكمة)، الإشراف والتقديم: د. حافظ إسماعيلي علوي، ود. منتصر أمين، دار كنوز المعرفة، عمان - الأردن، الطبعة الأولى، 1435هـ - 2014م ، ص (314).

(68) الجاحظ، البيان والتبيين 147/1.

(69) الشبعان، علي، الحجاج بين المنوال والمثال، نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري، مسكيلياني للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2008م ، ص (102).

(70) الجيلالي، بن فريحة، الوظيفة التواصلية للغة في التراث العربي: ابن جني، الجاحظ، ابن خلدون، كتابات معاصرة (مجلة الإبداع والعلوم الإنسانية)، العدد (78)، المجلد (20)، تشرين الأول - تشرين الثاني، 2010م ، ص (90).

(71) العمري، محمد، البلاغة أصولها وامتداداتها، ص (201).

(72) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(73) انظر: جبري، إدريس، سؤال البلاغة في المشروع العلمي لمحمد العمري، نحو بلاغة عامة ، ضمن الكتاب الجماعي : البلاغة والخطاب: أبحاث مهداة للدكتور محمد العمري، إعداد وتنسيق: د. محمد مشبال، منشورات ضفاف، بيروت - لبنان، ودار الأمان، الرباط - المغرب، ومنشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 1435هـ - 2014م، ص (260).

(74) مشبال، محمد، بلاغة رسالة «في تفضيل النطق على الصمت» للجاحظ، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء - المغرب، العدد (1)، 2012م ، ص (99).

(75) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين 88/1.

(76) المصدر السابق، 92/1.

(77) انظر: سلمان، علي محمد، الحجاج عند البلاغيين العرب، ضمن الكتاب الجماعي: الحجاج والاستدلال الحجاجي - دراسات في البلاغة الجديدة، إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، دار ورد، الأردنية للنشر والتوزيع، عمان - الأردن، الطبعة الأولى، 2011م، ص (13).

(78) الجاحظ، البيان والتبيين 89/1-90.

(79) الجاحظ، البيان والتبيين 200/1.

(80) الجاحظ، البيان والتبيين 28/3.

(81) انظر: شلحت، فيكتور، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ ، دار المشرق ، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة، 2007م، ص (43).

(82) المصدر السابق 115/1.

(83) الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي - دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة ف الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت - لبنان، الطبعة التاسعة، 2009م، ص (30).

(84) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها، وسلمان ، علي محمد علي، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج (رسائله نموذجاً)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ووزارة الثقافة والإعلام ، مملكة البحرين، الطبعة الأولى، 2010م، ص (158).

(85) انظر : البهلول ، عبد الله ، في بلاغة الخطاب الأدبي، بحث في سياسة القول في نصوص من الأدب العربي القديم، مطبعة التسفير الفني، صفاقس - تونس ، الطبعة

الأولى، 2007م ، ص (12). ويقول الدكتور محمد الخبو في تقديمه لكتاب البهلول: «ومن أهم إنجازات هذا العمل ربط مسألة البلاغة بمقولة سياسة القول في نطاق بحثي أصبح أكثر إلحاحاً في مجال المعرفة الأدبية، وقد خلصت البلاغة من مجال التزيين إلى مجال العقل والعمل، مجالها الأصلي» المقدمة ، ص (9).

(86) انظر: الجاحظ، البيان والتبيين 14/1.

(87) انظر: الطلبة، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة - بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 2008م ، ص (213).

(88) الجاحظ، البيان والتبيين 44/1.

(89) الجاحظ، البيان والتبيين 29/3.

(90) المصدر السابق 113/1.

(91) نفسه 98/1 وما بعدها .

(92) نفسه 161/1.

(93) الجاحظ ، البيان والتبيين 162/1.

(94) المصدر السابق 162/1.

(95) انظر: شلحت، فيكتور، النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، ص (43).

(96) الجاحظ، البيان والتبيين 191/.

(97) المصدر السابق 83/1.

(98) نفسه 83/1-84.

(99) الجاحظ ، البيان والتبيين 106/1.

(100) حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الرابعة، 1994م، ص (233).

(101) انظر: موشلر، جاك، وريبول، آن، القاموس الموسوعي للتداولية، ترجمة: مجموعة من الأساتذة والباحثين من الجامعات التونسية، إشراف: عز الدين المجدوب، مراجعة: خالد ميلاد، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010م، ص (214).

(102) غرايس، بول، المنطق والمحادثة، تعريب: محمد الشيباني، وسيف الدين دغفوس، ضمن: إطلالات على النظريات اللسانية والدلالية في النصف الثاني من القرن العشرين، مختارات معربة بإشراف وتنسيق: د. عز الدين مجدوب، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين ، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة»، قرطاج - تونس، 2012م، 611/2.

(103) الجاحظ ، البيان والتبيين 87/1.

(104) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(105) مفتاح، محمد، التلقي والتأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الثانية، 2001م ، ص (38).

(106) القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق :محمد الحبيب خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، 1986م، ص (106).

(107) المصدر السابق، ص (361).

(108) نفسه، ص (62).

(109) انظر: المصدر السابق، ص (62).

(110) الجاحظ ، البيان والتبيين 92/1.

(111) المصدر السابق 115/1-116.

(112) انظر: شارودو، باتريك، ومنغنو دومينيك، معجم تحليل الخطاب، ترجمة: عبدالقادر المهيري، وحمادي صمود ، مراجعة: صلاح الدين الشريف، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2008م، ص (183).

(113) انظر: صولة، عبدالله، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال «مصنف في الحجاج - البلاغة الجديدة» لبرلمان وتيتيكاه، ضمن: اهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص (306، 347).

(114) انظر: العمامي، محمد نجيب، مقاربة النص السردي التخييلي من وجهة تداولية، المقامة البغدادية للهمذاني أنموذجاً، ضمن: التداوليات وتحليل الخطاب، ص(233).

(115) انظر: ابن عامر، نجوى، متضمنات القول ومراجعها النحوية، ضمن: أعمال ندوة (الإحالة وقضاياها في ضوء المقاربات اللسانية والتداولية) القيروان، 30 نوفمبر 1-2 ديسمبر 2006م، جامعة القيروان - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - وحدة البحث في التداولية، مسكيلياني للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2008م، ص (102).

(116) انظر: ميلاد، خالد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة - دراسة نحوية تداولية، جامعة منوبة، والمؤسسة العربية للتوزيع - تونس، 2001م، ص (388).

(117) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(118) انظر: دلاش، الجيلالي. مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 1992م، ص (41).

(119) انظر: صمود، حمادي، البلاغة العربية: بلاغة وجوه أم بلاغة خطاب، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، جامعة منوبة - منوبة، تونس، العدد السابع والخمسون، 2012م، ص (27).

(120) انظر :المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(121) الجاحظ، البيان والتبيين 116/1.

(122) انظر: صمود، حمادي، البلاغة العربية: بلاغة وجوه أم بلاغة خطاب، ص (27).

(123) الجاحظ، البيان والتبيين 112/1.

(124) المصدر السابق 44/1.

(125) المودن، حسن، بلاغة الخطاب الإقناعي: نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1435هـ - 2014م، ص (314).

(126) انظر: المرجع السابق، ص (329).

(127) انظر، الشبعان، علي، بحوث في البلاغة الجديدة: القضايا والتحولات (من تقنيات الجدل إلى إيطيقا الاختلاف)، مكتبة المتنبي، الدمام، الطبعة الأولى 1433هـ - 2012م، ص (27).

(128) الجاحظ، البيان والتبيين 136/1.

(129) انظر: عادل، عبداللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص (65).

(130) انظر: إدراوي، العياشي، الحوار الاختلافي أو مسلك التناظر الكلامي - مساهمة في إعادة بناء أصول التخاطب، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، 2012م، ص (157).

(131) انظر: عبدالرحمن، طه، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، 2006م، ص (237).

(132) انظر: النجار، منال، مفهوم البراغاتية ونظرية المقام في المقولات المعرفية ولدى علماء العربية، ضمن: التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم: حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، الطبعة الثانية، 2014م، ص(80-81).

(133) انظر: المودن، حسن، دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظرية وتطبيقية محكمة في الخطابة الجديدة)، مجموعة من المؤلفين، تحرير وإشراف: د. حافظ إسماعيلي علوي، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الروافد الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 2013م، 425/1.

(134) الجاحظ البيان والتبيين 105/1.

(135) المصدر السابق 136/1.

(136) نفسه 75/2.

(137) المودن، حسن، دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته، (427/426/1).

(138) الجاحظ، البيان والتبيين 137/1.

(139) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(140) نفسه 144/1.

(141) نفسه 138/1-139.

(142) نفسه 138/1.

(143) الجاحظ، البيان والتبيين 136/1.

(144) المصدر السابق 92/1.

(145) نفسه 136/1.

(146) عادل، عبداللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص (66).

(147) انظر: العيادي، باشا، فن المناظرة في الأدب العربي، دراسة أسلوبية - تداولية، دار كنوز المعرفة، عمان - الأردن، الطبعة الأولى، 2013م، ص (370).

(148) الجاحظ، البيان والتبيين 93/1.

(149) العيادي، باشا، فن المناظرة في الأدب العربي، دراسة أسلوبية - تداولية، ص(372).

(150) انظر: المرجع السابق، ص (372).

(151) الجاحظ، البيان والتبيين 144/1.

(152) انظر: المودن، حسن، دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته 438/1.

(153) انظر: المرجع السابق 439/1.

(154) الجاحظ، البيان والتبيين 2/ 8.

(155) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(156) الجاحظ، البيان والتبيين 87/1.

(157) المصدر السابق 92/1.

(158) المودن، حسن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص (300).

(159) المرجع السابق ، ص (303).

(160) عادل، عبداللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة، ص (233).

(161) أعراب، حبيب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، ضمن: الحجاج مفهومه ومجالاته 177/2.

(162) العمري، محمد، في بلاغة الخطاب الإقناعي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الثانية، 2002م ، ص (90).

(163) الجاحظ ، البيان والتبيين 86/1.

(164) الجاحظ ، البيان والتبيين 118/1.

(165) المصدر السابق 118/1.

(166) انظر: المودن، حسن، بلاغة الخطاب الإقناعي، ص (304).

(167) الجاحظ ،البيان والتبيين 8/2.

(168) المصدر السابق 7/1.

(169) نفسه 99/1.

(170) نفسه 191/1.

(171) نفسه 191/1.

(172) صمود، حمادي، البلاغة العربية: بلاغة وجوه أم بلاغة خطاب، مجلة حوليات الجامعة التونسية، ص (28).

(173) انظر: ابن رمضان، صالح، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم (مشروع قراءة) دار الفارابي، بيروت - لبنان، وكلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة - تونس، و دار المعرفة للنشر، تونس، الطبعة الثانية، 2007م، ص (120).

(174) انظر: كوهن، جان، وديك، فان، وآخرون، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة وإعداد: د. محمد العمري، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الثالثة، 2005م ، ص (117-132).

(175) عادل، عبداللطيف، بلاغة الإقناع في المناظرة ، ص (66).

(176) انظر: صمود، حمادي، التفكير البلاغي عند العرب، ص (371).

(177) انظر: سلمان، علي محمد علي، كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج، ص(163).

(178) الجاحظ، البيان والتبيين 136/1.

(179) الجاحظ، البيان والتبيين 7/2.

(180) يحياوي، رشيد، التبالغ والتبالغية نحو نظرية تواصلية في التراث، دار كنوز المعرفة، عمان - الأردن، الطبعة الأولى 1435هـ/ 2014م ، ص (296).

(181) الجاحظ، البيان والتبيين 155/1.

(182) المصدر السابق 116/1.

(183) المصدر السابق 58/1.

(184) انظر: صمود، حمادي، البلاغة العربية، بلاغة وجوه أم بلاغة خطاب ، حوليات الجامعة التونسية، ص (28).

(185) الجاحظ، البيان والتبيين 116/1.

(186) المصدر السابق 118/1.

(187) نفسه 140/1.

(188) انظر: صمود، حمادي، البلاغة العربية، بلاغة وجوه أم بلاغة خطاب، حوليات الجامعة التونسية، ص (31).

(189) الجاحظ، البيان والتبيين 118/1.

(190) يحياوي، رشيد، التبالغ والتبالغية، ص (302).

(191) فضل، فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ، 1992م، ص (89).